عبد القادر عوده(*)

الأخ عصام العطار

يـــــا شـــــهيداً رَفَـــــعَ اللهُ بـــــهِ جبهـــةَ الحـــقِّ علـــى طـــولِ المـــدَى
ســـــوفَ تَبْقَـــى في الْحَنَايـــا عَلَمَـــاً هَادِيـــاً لِلرَّكْـــبِ رَمـــزاً للفِـــدا
مـــا نَـــسينا ، أنـــت قـــدْ علَّمْتنـــا بـــسمةَ المـــؤمن في وجـــهِ الـــرَّدَى

مـــن أبيـــات لعـــصام العطـــار في
الـــشهيد عبـــد القـــادر عـــوده رحمـــه الله

كان كبيراً في حياته وكبيراً في مماته ..

دخل ساحة الجهاد مرفوع الرأس وخرج مرفوع الرأس وكان الصورة الحية للإيمان العظيم الثائر المهدِّم الباني

لم يشرك بالله شيئاً من مال أو منصب أو شهوة أو إنسان ، ولم ينظر إلاّ بعين الـشرع ، ولم يحكـم إلاّ بحكـم الشرع

امتلأ قلبه بالله فصغرت عنده الدنيا ، ولم يبال أن يضرب بمعوله الباطل ، ويدوس إرادة الطواغيت بقدمـه ، وأن يستمسك بالحق ويعلنه ويعمل في إقامة صرحه ولو كان بذلك الموت .

كان قاضياً كبيراً ورأى الناس يخضعون للقانون الوضعي ولو خالف الشريعة الإسلامية فأرسل في كتابه (الإسلام وأوضاعنا القانونية) صيحته الصريحة المتحدية :

(إنّ الدستور الأساسي للمسلم هو الشريعة الإسلامية ، فكل قانون وضعي جاء متفقاً مع نـصوصها أو مـسايراً لمبادئها العامة أو روحها التشريعية فهو على العين والرأس يطيعه المسلم بأمر الله ، وكل قانون جاء على خلاف ذلك فهو في الرغام وتحت الأقدام ، ولا كرامة لما يخالف الإسلام ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله) .

من الذي يقرأ هذا الكلام ولا يشعر فيه باستعلاء المؤمن بالحق واعتزازه به ، ولا يحس فيه الجرأة التي لا تعــرف خوفاً ، والاستقامة التي لا تنحرف بها مواربة ..

ورأى الناس أيام فاروق يتركون حكم الله لهواه ، وينافقون له ، ويتزلفون إليه ، بأن يزعموا حكمه إســلامياً ، ويجعلوا الإسلام قابلاً بهذا الحكم الوراثي ، فبرز في كتابه : (المال والحكم في الإسلام) برأيــه القــاطع كالــسيف ، يضرب به المتملِّكين ، والمتزلفين المنافقين . قال في الصفحة الأخيرة من الكتاب : (يختلف نظام الحكم الإسلامي عن أنظمة الحكم الملكية ، فما يورَث الحكم والسلطان في الإسلام ، وإنما يترك للجماعة أن تختار للحكم من تراه أصــلح الناس له وأقدرهم عليه ، وحسبنا دليلاً على ذلك أن النبي لقي ربه فما تولى الحكم بعده أحد من أهله ، وإنما خلفــه أبو بكر ، فلما توفي لم يخلفه أحد من أهله وإنما خلفه عمر ، فلما قتل خلفه عثمان وهو من غير أهله ، فلما قتل خلفه علي وما كان من أهل عثمان .. ثم حولت الأهواء هذا النظام الإلهي إلى ملك عضوض لا يتورع أن يعطل أحكــام الإسلام ويحل حرمات الله ليُمكِّن للأطفال والفساق والظلمة من رقاب المسلمين) .

وليس هذا الكلام شيئاً الآن بعد أن زال فاروق ، ولكنه كان في ذلك العهد شيئاً هائلاً لا يستطيعه إلاّ من حرّره الإيمان من الرغبة والرهبة فَقَلَّ في عينه عَرَضُ الدنيا وهانت عليه الحياة ..

لقد كان شيئاً هائلاً حقاً في ذلك العهد الذي رأينا فيه الذين يسمّون أنفسهم الآن ثواراً وأحراراً عبيداً يُسخِّرون أنفسهم وأقلامهم لخدمة الملك ، وخدمة شهواته ومآربه ، والتسبيح بمناقبه النادرة في كل جوانــب العظمــة بــلا استثناء !!

و لم يكن ثائراً مهدِّماً للباطل -كما رأيتَ- فحسب ، بل كان المؤمن الباني أيضا ..

وضع عدداً من الكتب منها الكتاب العظيم (التشريع الجنائي في الإسلام) و لم يضعه التماساً لشهرة ، أو رغبة في منفعة ، فقد رفض الشهرة والمنفعة عندما رفض أن يبدل بعض ما فيه مما يمس (قدسية) الملك فخسر بــذلك جــائزة كبيرة تقرر منحه إياها إن حذف ما طُلِب عليه حذفه .. ولكنه لم يرد مالاً ولا مجداً بل أراد ليقيم معالم الحق في هذا الموضوع الخطير ..

حدثني عبد العزيز كامل أنّ عبد القادر ألّف كتابه هذا والإخوان يساقون إلى السجون أيام المجرم (إبراهيم عبــد الهادي) ، و لم يكن هو (رسمياً) من الإخوان فيقاسمهم محنتهم ، فاحتَبَسَ نفسه على خدمة الإسلام بعمل علمي مرهق -مُشاركةً لهم- ، و لم يُرِدْ أن يَنعم بحريةٍ ولا راحةٍ لا يَنعم بمثلهما الإخوان الممتحنون ، فكــان مــن أثــر حبــسه الاختياري ، وجهده المضني ، هذا الكتاب الجليل ، ثمرةً من ثمرات الجهاد الإيجابي البناء

وكان مسلماً صادقاً منسجم الشخصية لا فرق بين عقيدته وتفكيره وقوله وعمله .

إعتقد بأن القانون الوضعي المعمول به مخالف للإسلام فأنكره بلسانه وقلمه ، وأبى الحكم بــه ، فاســتقال مــن القضاء ، وداس بقدمه المنصب ، وجاه المنصب ، ومكاسب المنصب ، لا يرى في عمله شيئا .. إنما هو أمر بــسيط ، صنعه لأن واجب المؤمن أن يصنعه إذا أراد ألا يتناقض مع نفسه ، وألا يُغايرَ معتقده ويخالف شِرْعته ، ويُؤثر العاجلة على الآجلة ، والناس على الله

وسمعت عمن رآه يشتري ثياباً لبناته قبل العيد .. واشترى لخادمته مثلما اشترى لهن ، فقال له الراوي وكان لــه صديقاً : لماذا تكلّف نفسك ما لا يكلفك به أحد .. إنّ هذه الخادِم لا تصلح لهذه الثياب ، ولا تصلح هذه الثيــاب لها ، فلو اشتريت لها شيئاً أبسط لوفرت على نفسك وأرضيتها ، فقال –رحمه الله– : إنّ لهذه الصغيرة نفساً تشتهي ما تشتهي بقية النفوس ، وإنّ عليَّ –وقد وضَعها الله تحت يدي– أن أُسعدها كما أسعد بناتي ، وألبسها مما ألبــسهن .. ألم تسمع قول الرسول ﷺ : « ... **فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّــا يَلْــبَسُ** ... » رواه البخاري ، وإني لأعوذ بالله من أن أتَّبِع أمامَ الناس فيما هو ظاهر لهم ، وأقصِّر في دخائل أمري مما هو خافٍ عنهم .. المسلم يجب أن يكون مسلماً في كل تصرفاته

هكذا كان اعتقادُه يحدِّدُ دوماً موقفه وكلامه وعمله .. لقد كان صاحب شخصية مترابطة موحَّدة مفتاحُهــا في سائر جوانبها الإيمانُ والإسلام .

واختاره الإخوان سنة ١٩٥١م وكيلاً للجماعة ، فأصبحت حياته خالصة للدعوة ، يسدِّدُها بفكره ، ويغــذوها بقلبه ، ويشق لها الطريق بعمله .

وكلفته حكومة الثورة بعضوية لجنة الدستور ، التي شكلت لوضع دستور جديد لمصر ، فكان في هذه اللجنة عين الإسلام المبصرة ، وعقله المبدع ، ولسانه الناطق ، وكان المعبِّر عن حقِّ الشعبِ في حياةٍ حرة عادلة كريمة لا يتحكم به فيها متحكم ، ولا يستغلّه مستغل ، ولا يستعبده مستعبد .

ولما تنكّر بعض رجال الثورة للثورة ، وأرادوا استغلالها ، واتخاذها مطية لــسيادتهم ومــصلحتهم ، والــتمكين لدكتاتوريتهم التي تجعلهم أوسعَ من فاروق سلطاناً ، وأشد للشعب إذلالاً ، فحلوا جماعة الإخــوان أول مــرة ، ثم أقصوا اللواء (محمد نجيب) عن الحكم .. أرادوا أن يعتمدوا في مواجهة شعور الشعب على رجل يُجلُّــه الــشعب ، وعلى مكافحة قوة الإخوان بقائد من قادة الإخوان .. وأن يكتسبوا عبد القادر عوده لصفهم ، ويشتروه بمثــل مــا ضحَّوْا له بأمتهم وضمائرهم ، من المنصب الزائل والمجد الزائف ، ولكنَّ عبد القادر كان في غير عــالمهم ، وكانــت مغرياتهم تراباً تحت قدمه ، فنصحهم نصح المؤمن الصادق المشفق ، والفقيه العالم المجرِّب ، وسعى في أن يــردّهم إلى الطريق القويم فما ارتدوا .. عندها نزل الثائر الكبير إلى الشعب فقاد مئات الألوف من أبنائه في مظاهرة تطالب بــرد

اللواء نجيب إلى الحكم ، وردِّ الحرية المسلوبة من الشعب إلى الشعب ، وعودةِ الجيش إلى الثكنـــات وإنهـــاءِ حكـــم الإرهاب

ولَطمتْ أمواجُ الشعب الطغاة فخنسوا ريثما مرت الموجة ، وأظهروا الاستجابة فردّوا نجيبـــاً ، وأفرجـــوا عـــن الإخوان ، وأضمروا الغدر والانتقام ، والقضاء على دعاة التحرّر وأعداء الطغيان ، وقادة الشعب ، وأسروها لعبـــد القادر في ظلمات النفوس

ولما حُلَّ الإخوانُ للمرة الثانية ، على أثر معارضتهم للمعاهدة المصرية الإنكليزية التي تفتح أبواب مصر للمغتصبين إذا هوجمت تركيا ، وعلى أثر محاولة مزعومة لاغتيال جمال عبد الناصر من قبل أحد الشباب المتحمسين ، وأُودعـــوا السجون يأكل أجسامهم الحديد ، ويُرْمِضُ نفوسَهم الظلم ، ويذيبُ حياتهم العذاب .. كان في طليعة المعتقلين عبـــد القادر عوده

وفي السجن لقي الرجل العظيم ما أُعِدَّ له ولأمثاله من المكافأة على إخلاصهم العميق ، وجهـــادهم المتواصـــل ، وخدمتهم الجليلة للحق والوطن ..

لم يسترح يوماً من لذعات السياط حتى لقد تمزق جسدُه ، و لم تبقَ فيه قطعةٌ سلمت من سياط مواطنيه الأوفياء !

و لم يَطْعَمْ إلاّ الإهانةَ تِلو الإهانة من الزبانية المؤدَّبين !

وحرَّموا عليه النوم فلم يمكّنوه من النوم زيادةً منهم في التنكيل ..

.. ووقف الكهلُ الجبّارُ أمام عصابة (القضاة!) في محكمةِ (الشعب!) يستمع إلى الحكم .

كان راسخَ العزيمة ، مرتفعَ الجبهة كالجبل الأشمّ .

لم تستطع السياطُ التي مزّقت جسمه أن تصل إلى عقيدته ، ولا الأيدي التي سلبته حريته أن تصل إلى كرامته

وكأنما ارتفع بإيمانه فوق الحياة والموت والرجاء والخوف ، فبدا مطمئنَّ النفسِ ، واضحَ السخريةِ بهؤلاء المفتـــونين المغرورين بالحاضر وسلطانه الزائل .

وصدر الحكمُ بالإعدام

ونظر المجرمون إليه فكان الجواب : أنْ أطلقَ في وجوههم ضِحْكَة استهزاء

* * *

وفي اليوم السابع من كانون الأول/نوفمبر عام ١٩٥٤م وقف في ردهة سجن الاســتئناف مراســلوا الــصحف ووكالات الأنباء ، ووقف معهم التاريخُ ليشهدوا تنفيذ حكم الإعدام في عبد القادر عــوده وإخوانــه الأبطــال ، وليسجِّلوا انتصارَهم الأخيرَ في الحياة ..

ودخل عبد القادر حافيّ القدمين ، مكبَّلَ اليدين خلفَ الظهر ..

وتقدَّم ثابتَ الخطوات ، مرتفعَ الجبين ، ضاحكَ القسمات وهو يردِّدُ بصوته المرتفع : (سواء لديّ مــت علــى فراشي أم في ساحة القتال ، أسيراً أم حراً .. إنني ذاهب للقاء الله)

وبلغ التأثّرُ ببعض الحاضرين حداً لم يعودوا يملكون معه أنفسهم ، وامتلأت قلوبهم رهبة وخــشوعاً ، وتتابعــت الدموع في عيونهم جزعاً على العالم العظيم الشجاع الذي امتلأ ثقةً بالله فهو يسير مطمئناً إلى الموت .

وقال عبد القادر : (أشكر الله الذي منحني الشهادة)

ثم صاح رافعاً رأسه أكثر : (إنّ دمي سنيفجر على الثورة ، وسيكونُ لعنةً عليها) .. وتوجّه -ثابتَ النظــرات- بخطىً سريعةٍ إلى غرفة الإعدام ..

.. وارتفع عبد القادر عوده على حبل المشنقة فارتفعَ شهيداً إلى الجنة ، وعلماً شاهقاً في تاريخ الــدعوة ، يــدلّ المواكب المتتابعة من حملة القرآن ، وجنود الرحمن ، على الطريق ..

لقد انتصر انتصاره الحاسم العظيم .. أما الجناةُ الذين حرموا الإسلام والمسلمين منه أحوجَ ما يكونون إليه فقــد انهزموا وإن حسبوا أنفسهم منتصرين ..

لقد انهزموا أمامَ المطامع والأهواء ، وانهزموا في حكم الشرع ، وفي حكم المستقبل ، وفي حكم الضمير ، وكــان انتصارهم الموهوم أشبه بانتصار المجرمين .. ولقد لعنهم الشعبُ ، وغضب عليهم الله ، وسيبصق عليهم التاريخ .

عبد القادر عوده

- تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٣٠م وكان أول الناجحين
- التحق بالنيابة ثم القضاء وكان له مواقف مشهودة في العملين
- انتخب وكيلاً عاماً لجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥١م
- عين عضواً في لجنة وضع الدستور المصري التي ألفتها حكومة اللواء نجيب

❁ انتدبته الحكومة الليبية لوضع الدستور الليبي عام ١٩٥٣م

❁ كان من أكبر أعلام القانون وفقهاء المسلمين

❁ من مؤلفاته : التشريع الجنائي في الإسلام والإسلام وأوضاعنا القانونية والإسلام وأوضاعنا الــسياسية والمــال والحكم في الإسلام .. إلخ

❁ له أسرة مكونة من والدة وزوجة وثلاثة أولاد وبنتين

❁ أعدم وله من العمر ٤٧ سنة

(*) نشر هذا المقال في جريدة الشهاب الدمشقية بتاريخ ١٤ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ٠٥ حزيران/يونيو ١٩٥٥م ونعيد نشره الآن تحيــةً من الطلائع الإسلامية لذكرى هذا الرجل العظيم الذي يمرُّ على استشهاده هذه الأيام أربع وعشرون سنة .. رحمه اله تعــالى رحمــةً واسعة ورحم من استشهد معه أو استشهد قبله وبعده من رحال الدعوة المجاهدين